٢

عباقرة العرب

سلسلة
تاريخية
علمية
مبسطة
للناشئين

سليمان فياض



أبو عثمان الجاحظ

دار المريخ
للنشر

عباقرة العرب

٢

أبو عثمان الجاحظ

شيخ الكتاب

تأليف

سليمان فياض

الرسم والاشراف الفنى

هبة عنايت

الناشر: دار المريخ - الرياض. ص.ب ١٠٧٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

غادرَ عمرُو بنُ بحر الكتَّاب ، يحمِلُ لوحَه ، وبعْض الأوْرَاق ، وريشةً ومِحبرَةً ، ومعَهُ صديقُهُ إبراهيمُ بنُ سيَّار . ومشَيَا معًا عائديْن عَلى سِكةِ المِرْبد[1] ، إلى حيِّهما الفقيرِ بالبصْرة .

كان عمرُو فى السابعةِ من عمره ، وكان قصِيرَ القامَة ، أسْمَرَ اللون ، بارِزَ الجبْهَة ، جاحِظَ العينين[2] ، أفْطَسَ الأنْفِ ، عريضَهُ . كانَ دمِيمَ الوجْهِ ، بينَما كانَ صاحبُه إبراهيم وسِيمًا ، طوِيلا ، دقِيقَ الملامح ، حادَّ النظر . وأخَذَ يفخرُ على عمرٍو بأنّهُ فارسِيُّ الأبِ والأم ، فَزَها[3] عليهِ عمرٌو بأصْلِهِ العربى . فقالَ لهُ إبْراهيم :

– كيف تكُونَ عربيًا ، وأنْتَ أسودٌ ، وليْس فى العرَبِ سَوَادٌ مثلُ سوادِك ؟ وقد أخبرتْنى أمِّى ، أنَّ أُمَّكَ قالَتْ لهَا : إنَّ أبَاكَ بَحرا كانَ زِنْجيا منْ افرِيقية .

فقالَ لهُ عمرٌو :

– بل فى العربِ سُودٌ كثيرون ، ويسمِّيهُم الرُّواة[4] فى مسْجدِ البصْرَة بالغِرْبَان .

فضحِكَ صاحبُه إبراهيمُ وقَال :

– فأنتَ إذنْ يا عمرٌو غُرابُ حَيِّنا .

---

(١) المِرْبد : سوق واسع بالقرب من البصرة . كانت تعرض فيه الجمال للبيع ، ويقصده الشعراء والخطباء ، يلقون فيه أشعارهم وخطبهم .

(٢) بارز العينين .

(٣) افتخر .

(٤) الرواة : القصاصون يروون أخبار الأولين وأسمارهم للناس ، وكان يروونها شفاها من الذاكرة .



ففارقَهُ عمرٌو مسرِعًا ، وعادَ إلى أمِّهِ يسألُها عن أبيه ، وعن عُروبتِهِ . فضحِكَتْ أمُّهُ ، وانحنَتْ عليهِ قائلة :

– إنكَ يا وَلَدِى ، عربىٌّ ، صريحُ النَّسَب ، كريمُ الأصْل ، وكانَ أبوك يعْملُ جمَّالا لسيدٍ من ساداتِ العرب ، هو عمرُو بنُ قَلْع . وباسمِهِ سمَّاك أبوك يا بُنَىَّ . إنه الحَسدُ من صاحِبك يا وَلَدِى ، لأنَّكَ عربِىٌّ ، وهُوَ فَارِسِىٌّ .

وحاوَل عمرٌو أن يتذكَّرَ شكْلَ أبيهِ بحرُ بنُ محبُوب بنُ فزارة فلم يذكُرْ لهُ وجْهًا ، فقد ماتَ أبُوه عنهُ قبْلَ سِنين ، وتركَهُ طِفلاً مع أمّه ، فى هذا البيتِ المتواضِع من الخشَبِ والطِّين . وطرَحَ عمرٌو لوحَهُ وأوْراقَه على دِكَّةٍ بالبيت ، وغادَرَ الدارَ إلى الخارِج ، ليلعَبَ فى مياهِ النُّهَيْرات التى تشُقُّ طُرُقاتِ المدينة .

كان لعمْرو صديقٌ اسمُه مَهْدِىٌّ ، يعملُ أبوهُ قصَّابا[٥] ، وكانَ مهدِىٌّ واقفًا ، وفى يدِهِ لوحُه وأوْرَاقُه . واتَّجهَ إليهِ عمرٌو ، فرَأَى أبْناءَ الحى ، يجْرُون أمامَ كلبٍ يعوِى[٦] نابِحًا . وأدْرَكَ أن مهدِيًّا لمْ ينتبهْ إلى الكلب ، فنادَاهُ يحذِّرُهُ من الكلب . لكن الأَوانَ كانَ قدْ فات ، فقَدْ وثَبَ الكلب على مهْدِىٍّ ، فوقَعَ منْه اللَّوحُ والأَوْرَاق ، وغرسَ الكلبُ أنْيَابَه فى الجَفْنِ الأسْفَلِ ، من عينِ مهْدِىٍّ اليُسرى ، ومزَّق له خَدَّه ، ثم فَرَّ الكلبُ هارِبًا . وأسرَعَ عمرٌو إلى صاحِبِه ، يُحَاوِلُ أن يُوقِفَ مع أبِيه دِمَاءَه الغزِيرَةَ ، قبْلَ أنْ يأتِىَ لهُ الناسُ بطبيبٍ .

فى البيت راحَ عمرٌو يُحدِّثْ أمَّه عما فَعَله الكَلْبُ معَ مهْدِىٍّ ، فحزِنَتْ أمُّه لما حَدَثَ لصاحِبِه ، ودعَتْ لهُ الله حتى لا يكُونَ الكلبُ مسعورًا ، فيصابَ مهدِىٌّ بداءِ الكَلِب ، فيمُوتَ عطْشَانَ ينبَحُ مثل الكِلاب . وحذَّرتِ الأمُ عمرًا من اللَّعِبِ معَ الأَوْلاد ، وإغضَابِ الكلاب .

وصحِبَتِ الأمُّ عمرًا مَعَها ، وخرجَتْ إلى شاطئِ النَّهرْ ، ليبيعَ مَعَها الخُبْز ، والسَّمَك المشوِىَّ ، والسكرَ الأبيَض . وحرَص عمرٌو على الذهَاب ، عندَ الغروب ، ليزُورَ صاحِبَه مهْدِيًّا ، ويطمِئنَّ عليه ، فوجَدَ الطبِيبَ قد طهَّرَ له جُرْحَه ، وخَاطَه ، وربَطَهُ بِضمَادٍ أبيضَ نظِيف .

(٥) جزار .
(٦) يصيح كصياح الذئب

صديق الحيوانات



حزِنَ عمْرٌو ، لأنَّ صاحِبَه إبراهيم قدْ غادَرَ مع أُسرَتِه البصْرةَ عائديْن إلى موْطِنِهم الأوّل فى بلْخ (٧) . وذهَبَ عمرٌو إلى معلِّمِه فى الكُتّاب ، وأخبرَهُ بسفرِ إبْراهيم ، فقالَ لَهُ المَعلِّم :

– إذنْ فَقَدْ فقدنَا دِرْهَماً يا ابْنَ بحْر .

وكان الدِّرهَمُ هو راتِبُ المعَلم الشهْرِىِّ ، من كلِّ واحِدٍ من تلاميذه . فكرَهَ عمرٌو ما قالَهُ معلِّمُه . وحدَّث نفْسهُ بأنَّ المالَ هُوَ كلُّ شىءٍ . وفكَّر أنه لِكىْ ينالَ مالاً يجِبُ أنْ يشْتغِلَ ، وأنْ يَتعلمَ . وعادَ مع رِفَاقِه من تلامِيذِ الكُتَّابِ إلى بُيُوتِهم .

(٧) مدينة فى خراسان. وموقعها فى أفغانستان الآن .

وقضى عمرٌو ليلتَهُ ساهِرًا ، يفكرُ فيما حَدَثَ لمهدِيٍّ ، وفى حُزْنِه على إبْراهيم ، وفى المال ، وفى ضرُورَةِ أن يزْدَادَ عِلْما بعد أن عَرف القراءَة والكِتَابَة والحِسَاب ، وحفِظَ القرآنَ فى كُتّاب البَصْرَة .

وأخذَ عمْرٌو يرقُبُ فى ضَوْءِ قِنْدِيل ، سُلْحفَاةً له ، تحبُو علَى مَهَلٍ فى ساحةِ البيت ، وجُرْذًا [٨] يخْرج من جُحْرٍ بالجِدَار ، ويقفِزُ هُنَا وهُنَاك ، وثُعْبَانًا يُطِلُّ برأْسِه من ثُقْبٍ فى جِدَارٍ خلْفِىٍّ للبَيْت ، وكانَ الجِدَار يُطِلُّ على مُسْتَنْقَعٍ ساكِن المياه ، عطِن [٩] الرائحة .

فأيْقَظَ عمرٌو أمَّه وأراها الثعْبَان تلمعُ عيناهُ فى ظَلامِ الليْل ، فقالَتْ لهُ الأمّ :

– لاخوفَ منه ، إنه يُريد اصطِيادَ الجُرْذ . ولا تَخَفْ مِنْه على السلْحفَاةِ ، فسوْفَ تَخْتَبِى فى صَدَفَتِها منه ، عندما تُحِسُّ بالخطَر .

وكان الوقْتُ صيفا ، فتمدّدَ عمرٌو إلى جانِبِ أمِّه لينَام . وفكّرت الأم ، أن ابنَها عمرًا لا همَّ لهُ إلا التفْكيرُ فى الفَرَاش ، والضّفَادِع ، وسائِرِ الطيوَر ، والحَيَوانَاتِ ، والحَشَرات . ولذلِكَ دَهِشَت الأمُّ عندما سِمَعتْ عمْرًا يقُولُ لَها :

– أمى . أُرِيدُ أنْ أذْهَبَ إلى مسْجِد البَصْرة ، وأتعلم العِلْم من شيوخِه : الأصْمَعِىِّ ، وأبِى عُبَيْدَه ، وأبِى هُذَيْلِ العَلَّافِ ، وثُمَامَة بنِ أَشْرس ، والخَلِيلِ بنِ أحْمَد .

فكّرَتْ أمُّ عمْرٍو لحَظةً فيما قالَه وَلَدُها ، ثم قالَتْ له :

– هلْ تستطِيعُ أنْ تصِلَ إليْهم ؟

فقال لها عمرٌو :

---

(٨) فأرا

(٩) رائحته كريهة ، والعطن مخلفات الحيوانات كالجمال والماشية .



– أجَلْ . وقد جلَسْتُ إليهم ، واستمَعْتُ إلى مناقَشَتِهِم فى العِلم ، ووجدتُنى أفْهَمُ ما يقُولُون . فعلتُ ذلِكَ مِرارًا من قبْل .

وخشِيتْ أمُّ عمرٍو أنْ يُؤَثِّر طلَبُ العِلْمِ عَلى ولَدِها ، فلا يَجِدُ وقتًا لكسْب المالِ من بيعِ السمك ، والخبزِ ، والسكَّر ، فقالتْ له :

– سيؤثِّر ذلِكَ على رزقِنا يا عمْرو . وقد كبِرْتُ فى السنِّ ، وأختك ما تزالُ صغيرةً .

فطمْأنها عمرٌو ، وأكَّدَ لَها أنهُ سيَشْتغِلُ فى البَيْع حتى العَصْر ، ويذهَبُ إلى المسْجِدِ بعْدَ أن ينْتهىَ من البَيْع . فضمَّتْهُ أمُّهُ إلى حُضْنِها ، وأخذَتْ تُهَدْهِدُه بالغِناء حتَّى نامَ .

وخرَج الثُّعبَانُ من جُحْرِه ، وانقَّض على الجُرْذ والتهَمَهُ ، ثم عادَ إلى جُحْرِهِ ، وكانَتِ السُّلحفَاةُ قد ضَمَّتْ أطرَافَها إلى جَسَدِها فى داخِلِ صدَفَتِها الحجرِيَةِ ، عندمَا انطفأَ ضوءُ القِنْدِيل ، بعد أن نَفَدَ منه الزيْت .

الصديق الغني

فى المسجدِ ، التقَى عمرٌو بأحَدِ أثرِيَاء البصْرَة ، واسمُه أبُو عِمرَانَ . وأُعْجِبُ أبُو عِمْرانَ بالصبِيِّ عمرٍو ، لذكائِه ، وسُرْعَة جوابِه ، ولم ينفِرْ أبُو عمران من قبح وجه عمرٍو ، وإنما قال له :

– ليتَ مثلَك كانَ وَلَدِى يا بُنَىَّ . اطلُب العِلْم ما عِشْتَ يا بنى ، ولَعَلَّكَ أنْ تكُونَ يوْمًا كاتِبًا نابغةً ، وترْأَسَ دِيوَانَ الرَّسَائلِ للخليفَةِ نفسِه ، إنْ شِئْتَ ذلِك .

وفرِحَ عمرٌو بما قِيلَ له ، ووَعَدَ أَبَا عِمْرانَ بأنْ يهَبَ حياتَهُ لطلَبِ العلم . وصحِبَه أبُو عِمرانَ معَهُ إلى بيتِه ، وأطعَمَهُ ، وأعْطَاهُ دَراهِمَ ، وكتبًا وكراريسَ ، لِيقْرأَ ما فِيها ، ويفْهمَهُ .

وعادَ عمرٌو إلى أمِّه لا تكادُ الدُّنْيا تسعُه من الفرْحَ . وأخبَرَ أمَّهُ بما كَانَ من أمْرِ أَبِى عِمرَانَ مَعَه ، فشكرَتْه الأمُّ ، ودعَتْ له ولِوَلَدِها بالخيرِ .

لكنَّ عمرًا أحبَّ العِلْم ، والكُتُبَ ، وشيُوخَ المسْجِد . فانْشَغَلَ قلبُه وعقلُه عن بيْعِ الخُبْز ، والسَّمَك ، والسكر . وصارَ يخرجُ فى أَوَّلِ النهارِ حامِلاً كُتُبَهُ وأوْرَاقَهُ إلى شاطِئِ النّهْر ، ويظلُّ يقرأُ ويقرأُ ، حتى يحِينَ أَوَانُ الجلُوس إلى عُلَماءِ مسجدِ البَصْرة ، فيُسرِع إلى المسْجِد ، ناسيًا طعَامَه وشرَابَه .

وعَادَ عمرٌو من المسجدِ ذَاتَ ليْلَة ، وكان الجُوعُ قد اشْتَدَّ بِهِ ، فى يومٍ من أيامِ الربيع ، وطَلَبَ طعَامًا من أمِّه ، فقامت الأمُّ ، وعَادت إليْهِ بطبَقٍ كَبِير ، ملِئٍ بكتُب .

وكراريسَ ، من هذهِ الكتُب والكرَارِيس التى ملأَ عمرٌو بها إحْدَى غُرفِ البَيت . ودهِشَ عمرٌو ، وقالَ لأُمِّه :

– ما هَذَا يا أمَّاه ؟

فقالتْ لهُ أُمُّه :

– هَذَا ما تجيئُنَا بِهِ فى كُلِّ يْوم .

وقام عمرٌو مُغْتَمًّا ، وغادَرَ البَيْت . وذهَبَ إلى المسجِدِ فوَجَدَ أصحابَه قدْ غادَرُوه ، معْ شُيُوخِهِ العُلَماء . فجلَس فى المسجِد حزِينًا ، شاحِبَ الوجْهِ . وطالَ بِهِ الُجلُوسُ ، والتفكيرُ ، فلا يدرِى إن كانَ قد ظلَّ ساهِرًا ، أمْ أنهُ قد غفَا ونَامَ . حتى انتَبَه على صوتٍ يقُولُ بِجوَارِه :



– ماذا بِكَ يا أَبَا عُثْمان ؟

التفتَ عمرٌو فوجدَ صديقَه الغَنِىَّ أَبَا عِمرَانَ ، جالسًا بجانِبه يُحدِّثُه . ويُلحُّ عليهِ لِيُخبِرَه بما يُحْزِنُه ، فأخْبَرهُ عمرٌو بما كانَ مِنْ أمْرِ أمِّه مَعَه . فاستمْهَلَهُ أبو عمرانَ حتّى يُصَلِّيا الفجْرَ مَعًا . ثُمَّ صَحِبَه مَعَه إلى بيتِهِ ، وقدّمَ لهُ طَعَاما فاخِرًا ، فأكَلَ عمرٌو حتى شبع . وفُوجِئَ عمرٌو بأبِى عمرَانَ يُعْطِيهِ كيسًا مليئا بالدنَانِير ، وهو يقُولُ له :

– أشبعْ أمَّكَ منْ هَذَا المالِ ، بما تشترِيهِ لها من السُّوق . أيكفِيكَ الآنَ خمسونَ دِينَارًا ؟

شهِقَ عمرٌو ، وقَال :

– خمسُون دينارا ؟ !

فضحِكَ أبو عمران ، ودفعَه معَهُ إلى السوق ، قائِلاً :

– لا تَنْقُصُ شيْئا والله . هيَّا بِنَا إلى السوق .

واشترَى عمرٌو لأمِّهِ دقيقا وزَبيبا ، وزيْتا ، وَتمْرا ، وعادَ إلى أمِّه ، يتبَعُه الحمَّالُون . ودفعَ البَابَ فانْفتَح ، وكانت أمُّهُ جالِسَةً تنتظِرُ عوْدتَه مع أختِهِ فى قَلق ، وهىَ تلُوم نفْسَهَا . ورأتِ الأمُّ الحمَّالِينَ يدخُلُون ، ويُنْزِلُونَ مِنْ على ظهورِهِم ما يحمِلُون ، فقالتْ لعمرٍو :

– من أيْنَ لكَ هذَا يا بُنَىَّ ؟

فلم يَزِدْ عمرٌو على أنْ قالَ ، وقد صارَ فجأَةً رجُلاً :

– من الكَرَارِيس التى قدَّمْتِها إلىَّ فى طَبَقٍ .

فى سوق المربد



اعتادَ عمرٌو ، وقد أمِنَ الحاجَةَ للمَال ، بفضْل صديقِه الكَبِير أبِى عِمْران ، أن يذهَبَ إلى سُوق المِرْبَد ، ويتنقّل فِيها ، ويجلِسَ هُنَا أو هُنَاك ، كلما أقِيمَت بها سُوقٌ للبيْعِ والشِّراء . ويرُوحُ يسْمَعَ أشْعَار الشُّعَرَاء ، وخُطَبَ الخُطَباء ، يُلقِيها الشعراءُ والخطباءُ ، يُلْقُونَهَا بأنفسهم ، أو يرْوِيهَا عنهُمْ رُوَاةُ الأشْعَارِ والخُطَب ، الذين كانُوا يحفظُونَ ما يُلْقُونَه عنْ ظهْر قَلْب . ويُدوِّنُ عمرو بعْضَ مَا يَسْمَعُ مِمّا يخْشَى زَوالَه من ذِهْنِه ، ويحفَظُ لفَوْرِه أكْثَر مَا يَسْمَعُ ، ومِنْ أَوَّلِ مرة ، فَقَد درَّبَ نفْسهُ على ذَلِك ، حتى صَارَتْ له ذاكِرةٌ قوِيَّةٌ لا تَنْسى . وكانَ الذِى دَلَّه على سُوقِ المِرْبَدِ ، وصحِبَه إليهِ أوَّل مرة ، هو صدَيقُه الكبيرُ الغَنى : أَبُو عِمرَانَ .

وكان عمرٌو يعُودُ دَائِمًا من سُوقِ المِرْبَد ، ليَلْقَى قبْلَ أىِّ أحَد صديقَهُ أبَا عمران ، فيُسْمِعه ما سَمِعَ وحفِظَ من قَصَائِدِ الشِّعْر ، وأراجيز[١٠] البَدْو ، ونثْرِ الخُطَبَاء ، ويُبْدِى عمرٌو رأيه لصَدِيقِه فيما يرْوِيه ، فيضْحَكُ أَبُو عمرَانَ سعيدًا ، ويقُولُ له :

– إنّكَ يا أَبَا عثمان ، تُشْبِهُ عُلَماء الكَلَام ، عنْدَما كَانُوا صِغَارا فى مثْلِ سِنِّكَ .

---

(١٠) جمع أرجوزة . وهى مقطوعة شعرية من بحر الرجز تصلح للغناء ، ولحُدَاء الابل فى الصحراء .

وذهَبَا معًا إلى بيتِ الخليلِ بنِ أحْمدَ . ودخَلَهُ عمرٌو لأوَّلِ مرةٍ ، فرأى مجلِسَ العُلَماء منعَقِدًا ، ورأى صدِيقَهُ إبراهِيمَ بنَ سيَّار وقد عَادَ مع أبيهِ إلى البصْرةِ ، وسمِعَ الخَلِيلَ ابنَ أحْمدَ يسْألُ إبْرَاهِيم ، وإبراهيمُ يبْدُو فى إجَاباتِه عالما كبيرًا ، وسمِعَ الخليلَ يقولُ لأبِى ابرَاهيم :

– خذ ابنَكَ مَعَك ، فَنَحْنُ أحْوجُ إلى العِلْمِ مِنْه .

وشعَرَ عمرٌو بالغيْرة من صَاحِبِه إبْرَاهيم ، وقال لصديقِهِ أبِى عِمْرانَ :

– كانَ بوُسْعِى أَنْ أُجِيبَ لفوْرِى عَنْ أسئِلةِ عَالمِنَا الخليل ، مثْلما أجابَه صاحِبِى إبراهيم .

فقال لهُ أبُو عمرانَ مُبْتَسِمًا :

– يا أبَا عُثْمان . يُمْكِنُكَ مِنَ الآنِ أنْ تسبِقَ صاحِبَك ، بلْ أنْ تكُونَ أكبَرَ من هؤُلاءِ العُلَمَاءِ ، الذِينَ تَرَاهُمْ أَمَامَكَ ، بشرْطٍ وَاحِد .

فقَال لهُ عمرٌو :

– ما هُو؟

فقال لهُ أبُو عِمْرَان :

– لا تقُلْ لنفْسِكَ أَبَدًا : لم يَتْرُكِ الأَوَائِلُ للأَوَاخِرِ شيْئا . فالعِلْمُ بحرٌ لا سَاحِلَ له . وهُنَاكَ دائِمًا فى دُنْيا اللهِ ، مجْهُولٌ لا يعرِفُه البَشَر . وسأُعْطِيكَ مِنَ اليومِ كُتُبا لدَىَّ ، تَزِيدُكَ فضْلاً وعِلْما .

وصحِبَ أبو عمرانَ صديقَه الصغِير ، الذى لم يزد عمرُه بعْدُ عنْ عشرِ سنَوَاتٍ ، إلى بيتِه ، وأعطَاه كُتُبا فى أخبَارِ العَرَب ، ومنازِلِهم ، وأنْسَابِهم ، ومُنَافرَاتِهم (١١) . ودعا بخدَمِه فحملُوها إلى بيْت عمرٍو . وازْدَحَمَت بالكُتُبِ والكرَارِيسِ أرْكَانُ البَيْتِ المتواضِع .

(١١) منازعات العرب الكلامية فى المفاخرات والمشاجرات



وعكَفَ عمرٌو على كُتُبِ أَبِى عِمرَانَ ، يقرَأُ فِيها ، وينقُلُ مِنْها إلى كرارِيسه ، ويحفَظُ ما بِها مِنْ أفْكار رئيسيّة . وظَلَّ كذلكَ شُهُورًا لا يُغادِرُ بيْتَهُ إلا لصَلاةٍ ، أو ليذْهَبَ لزِيَارةِ صديقِه أبِى عِمرانَ ، أو ليصْحَبَ معَه رفِيقَ عُمْرِه إبراهيمَ بنَ سيَّار . ويتوَجَّهان إلى سُوقِ المِرْبَد ، ويتبادَلانِ الرأْىَ فى سائِرِ النَّاس .

وفى المِرْبَد ، أغْرَى أبُو جعْفَرَ العَنْبَرِىُّ الصغِيرَ الذِكىَّ عمرًا بنَ بحر ، بالسفَرِ معَه إلى البادِيةِ فى الجزِيرة ، قائِلاً لَه :

– لن تُغنِيك يا عمرٌو رِوايتُنا لأخْبَارِ العَرَبِ وأسْمَارِهِمْ ، عنْ سَمَاعِهَا هِىَ وأكْثَرَ مِنْها مِنَ الأَعراب . وسوْفَ تسْمَعُ مِنْهُمْ ما لَمْ تَسْمَعْه قط منْ أحَد .

فقالَ لهُ عمرٌو :

– يا أَبَا جعْفر . كُنْتُ قدْ عَزَمْتُ على السفَرِ إلى البَادِيَةِ ، قبْلَ أن تُعرِضَه علَىَّ . فخُذْنى معَك . فإنى أُرِيدُ أنْ أكُونَ رَاوِيةً ، أفضَل من سائِرِ الرُّوَاة .

وَوَعَدَه أَبُو جعْفَرَ الْعَنْبَرِىُّ باصْطِحَابِه معَه ، فى سَفْرَته القَادمةِ إلى صحارَى جزِيرَة العَرَب .



برَّ أبُو جعْفَرَ العَنْبرىُّ ، راوِيةُ المِرْبَدِ بوَعْدِه ، فصحِبَ معَهُ عمرا بنَ بحْرٍ فى رِحْلَتِه إلى البَادِيةِ . ولم يكُنْ قد جَاوَزَ الثانِيةَ عَشرَةَ من عُمْرِه . ووجَدَ عمرٌو نفْسَه وَحِيدًا ، فى القافِلةِ المتجِهةِ صوْبَ الجنُوبِ . فالمسَافِرُونَ معهُ ينفِرُونَ منْهُ لكَوْنِه ما يزَالُ غُلامًا ، ولأنَّهُ غرِيبُ الوَجْه ، بعينَيْه الجَاحِظَتَيْن ، وجبْهَتِهِ البَارِزَة ، وأنْفِه الأفْطَس . بَلْ صَارُوا يُنَادُونَه : يا جَاحِظُ . حتَّى اشْتهر بيْنَ المسافِرين باسْمِ الجَاحِظ . لكنّ عمرًا ما لبِثَ أن بَهرَهُمْ بقُدْرَتِهِ عَلى الحديث ، وعَلَى المؤَانَسةِ[١٢] فى الكَلامَ ، وبجُرْأَتِه فى إبْدَاءِ رأْيِه ، فى مشاهِيرِ عَصْرِه ، من الشُّعَرَاء والخُطَبَاءِ والرُّوَاة ، وهُوَ جالِسٌ بينَهُمْ على طَعَامٍ منْ جُبْنٍ ، وبَيْضٍ ، وزَيْتُونٍ ، وتمْرٍ ، عنَد بِئْرِ الحَفيرِ[١٣] .

واتجَهتْ القافِلةُ بعَمْرٍو إلى أرضِ البحرين[١٤] ، وكانَتِ الطريقُ مُعْشِبَةً والسماءُ صافِيَةً ، لكنَّ الحَرَّ كانَ شَدِيدًا ، وبَخرُ مِياهِ الخَلِيجِ العَرَبِىِّ يَزِيدُ منْ رُطُوبَةِ الجَوِّ ،

---

(١٢) الملاطفة وإزالة الوحْشة فى الحديث

(١٣) بئر تقع على بعد أربعة أميال جنوبى غربى البصرة .

(١٤) هى الآن بلاد الخليج العربى شرقى المملكة العربية السعودية .



فتضيقَ بهَا الأنْفَاس . وعبثًا حاولَ عَمْرُو بنُ بحْر أنْ يجمعَ أخبَارًا عن عَرَب طَسَمٍ وجدِيس ، الذينَ بادُوا فى الزَّمَانِ القَدِيم .

وتعرَّفَ عمرٌو فى رِحلَتِه إلى شَابٍّ اسمُه عبْدُ الرحّمْنَ ، وقدَّمَهُ عبدُ الرَّحْمنِ إلى أبيه الأميرِ عبْدِ الملِكِ بنِ صَالحٍ الهَاشِمِىِّ ، أحَدِ أغنِياءِ البَصْرَة ، فَرأَى فيهِ عمرٌو عملاقا ، مهِيبَ المنْظَرِ ، كبِيرَ العُمَامَة ، كأنَّهُ قائِدُ جيْش . ورحَّبَ الأميرُ بعمرٍو ، وأُعْجِبَ بهِ حينَ سمِعَ إنْشادَه للشِّعْر ، وحكايتَهُ للأخبَارِ والنَّوادِر . وقرَّرَ الأمِيرُ أن يكُونَ عمرٌو ضيْفَهُ طِوَالَ سفَرِه فى جزيرةِ العَرَب ، وأرْكبَه فرسًا مِثْلَ وَلدِه ، فَراحَا يتَسابَقَانِ معًا ، ويصِيدانِ معًا حيَوانَاتِ الصحراءِ ، من ظباءٍ ، وغِزْلاَن ، وأَرَانِبَ بريَّة .

وانفصَلَ أبُو جعْفَر العَنْبَرِىُّ عنِ القافِلَة ، بعْدَ زِيَارَته لدِيَار قوْمِه فى البحْرين ، عائِدًا إلى البَصْرَة ، فبَعَثَ عمرٌو معَهُ برسَائِلَ إلى أُمِّه وأصدقَائِه فى البَصْرة .

وزار عمرٌو مع صاحِبِه عبدِ الرحمن الأماكنَ التى جرَت بِهَا سائِرُ المعَارِك والحروب . وطوالَ السفَرِ كانَ عمرٌو يُدوِّنُ فى أوْرَاقِه ما يسمَعُهُ من العَرَبِ ، من لُغَةٍ ، وشِعْرٍ ،

وحِكَايَاتٍ ، ومعارِفَ عنِ الأرْض والحَيَوانِ ، حتى دخَلتِ القَافِلَةُ دِيَارَ نجْد ، ففتَحَ عيْنَيْه ليَرَى الزُّهُورَ التى تغنَّى بهَا الشُّعَرَاءُ[١٥] ، وفتحَ أُذُنَيْه لِيَسْمَعَ حكاياتِ المجانِين ، والعُشّاق ، والبخَلاء ، والكُرَماء ، وأخبَارَ الأقْدَمِينَ ، منْ قِصَصٍ وأسَاطِيرَ وخُرَافَاتٍ ، ومفاخَرَاتٍ ، تحفَظُها ذاكِرَةُ الأعْرَاب : بينَ أهْلِ اليمن، وبينَ أهْلِ الحَجاز ، وبينَ العَرَبِ وبيْنَ الفُرْس .

واختَرَقَتِ القَافِلَةُ بالمسافِرينَ ديَارَ نجْدٍ إلى دِيَارِ الحِجَاز ، متجهةً صوْبَ[١٦] المدينةِ ومَكَّة ، فرأى عمرٌو كلَّ ما كانَ يقْرَأُ عنْه ، وراحَ يجَمعُ المزِيدَ من المعلومَاتِ عنه قبْلَ أنْ يعُودَ إلَى البَصْرة مع إحْدَى القَوَافِل ، وقدْ وعَدَ عبدَ الرحْمَن وأباه ، أنْ يَزُورَهُمَا يومًا فى قصرِهما الشامِخ ، عنْدَمَا يعُودَانِ إلى البصْرة .



(١٥) من هذه الزهور : العرار ، والخُزامى .

(١٦) ناحية



عادَ عمرُو بنُ بحر إلى البصرة ، بعدَ عامَيْنِ كامِلَين ، ولم يكَدْ يُسَلِّمُ على أُمِّه وأُخْتِه ، حتى أسرَعَ إلى المسْجِدِ الجَامِع . فوجَدَ الدُّنْيا قدْ تغيَّرتْ كثِيرًا فى غِيَابِه : رحلَ عُلَماءُ من شُيُوخِ المسجِدِ إلى بغْدَاد ، ليضَعُوا عِلْمَهمْ فى خدْمَةِ الخليفَةِ والوزرَاء ، وبينَهُمْ كانَ أَبُو عبيدَةَ ، والأَصْمَعِيُّ ، وسَهْلُ بنُ هَارُون . أما صديقُه إبراهيمُ بنُ سيَّار فقد اشتهرَ ، وصارَ لقبُه هُوَ : النظَّام ، بل وصَارَ من رُوَّادِ قصْرِ صديقِه أبِى عِمْرَانَ ، يُجَادِل فيهِ ويُنَاقِشُ عُلَمَاء الْكَلَامِ ، وأصْحَابَ المذاهِبِ مَنْ صَابِئَة ومُرْجِئَة (١٧) . وَوَجَدَ أشْعَار أبِى نُوَاس ، وَرَاوِيَتَيْه : الجَمَّازِ ، وأبى هَفانَّ ، تملأُ البَصْرَة .

وغادَرَ عمرٌو المسجِدَ وقدِ امتَلأَ قلبُه غيْرةً من صديقِه ابنِ سيَّار ، فلمْ يسْعَدْ وهُوَ فى الطَّرِيقِ ، بمناظِرِ النُّهيْرَاتِ والنَّخِيل ، والكُرُومِ ، والبَسَاتِين . وبدأَ الشِّتَاءُ هَجْمَةَ

(١٧) فرقتان من فرق علماء الكلام .

مُفَاجِئَةً ، ومُبَكِّرَة ، بريحٍ سرِيعةٍ ، ثم بأمْطَار غزيرةٍ ، وكان عمرٌو يمشى كالمحمُومِ يفكِّر فى غَدِه ، كيْفَ يعِيش ؟ وكيْفَ يشُقُّ طريقَه ؟ وأىَّ درْبٍ يخْتَارُ أن يسيرَ فيهِ : بينَ العُلَماءِ ، أمِ الشُّعَرَاءِ ، أمِ الكتَّاب ، أمُ الرُّوَاة ؟ !

وفى الليل ، وقطَراتُ المَطرِ تطرُقُ سقْفَ الدار ، وتسِيلُ بِهاَ الميَازِيبُ فى الطُّرُقَات ، قرّرَ عمْرُو بنُ بْحر ، أنْ يْعَمَلَ تاجِرًا فى أَىِّ شىء ، ولا ينْتَظِرُ عَطاءً من صديقه أبِى عِمْرانَ ، أو مِنْ صديقِه الأمير عبدِ الملكِ بنِ صَالِح ، إلى أن يهْدِيَه اللهُ إلى اكْتِشَافِ نفْسِه ، فيكونَ عالما ، أو شاعِرًا ، أو كاتبا ، أو راوِيا .

ومَعَ الصباح ، عادَ عمرٌو الى حِرْفَتِه الأُولى ، يبيعُ الخُبزَ ، والسكَّرَ ، والسَّمَك المشْوِىَّ ، فإِذَا أصَابَ رِزْقَ بيْتِهِ فى يومِه ، أسْرَعَ إلى قصْرِ صديقه أبِى عِمْران ، أو حضَرَ النَّدَوَاتِ[١٨] فى قصْرِ آلِ سُلَيْمان ، أو يذْهَب إلى دَارِ عبْدِ الملك بن صالحٍ بعْدَ عودَتِه إلى البَصْرَة ، ويستعِير مِنَ المكْتَبَاتِ الخَاصّةِ فى قُصُورِهم الكُتُبَ والكَرَارِيس ، ليقْرَأَها ، أو ينْسَخَها ، إذا أُتِيحَت لهُ فُرْصَةٌ للقِراءَة والنَّسْخ ، فى لَيْلٍ أوْ نَهار .

وجاءَهُ يومًا صديقُه عبْدُ الرحمن يودِّعُه ، لأنه سيُسَافِرُ مع أبيه ، الذى ولاه الخليفَة هارُون الرشِيد إمارَة الشام . وشعَر عمرٌو بعْدَ سفرِ عبْدِ الرَّحْمَنِ بالفَرَاغ والوحْدَة ، فأخَذَ يبْحَثُ عن صديِقه ابنِ سيَّار ، فوجَدَه قدْ سافَرَ مُتَجوِّلا بيْنَ البُلْدَان . وقرّرَ عمرٌو أن يذْهَبَ إلى دَكَاكِينِ الورّاقِين ، يتصفَّحُ الكُتُبَ ، ويشْترِيها أوْ يُؤَجِّرُها ، لِينْسَخَها بيدِه .

وبَلَغَ من شغَفِهِ بكُتُبِ الورّاقِين ، أنّهُ كانَ يُؤَجِّرُ الدُّكانَ فى الليل ويُغْلِقُ صاحِبُه البابَ علَيْه ، وعندَمَا يفتَحُ الورّاقُ دُكَّانَه ، يجِدُ عمرًا ما يزَالُ جالِسًا ساهِرًا ، يقرأُ أوْ ينْسَخُ على ضوْءِ قِنْديل يملأُ المكَانَ بالدخَان .

---

(١٨) المجالس الأدبية والعلمية .



بَلغَ عمرٌو السَّادِسةَ عشْرَةَ من عُمْرِه ، وقد قرّر أنْ يكُونَ كاتِبا ناثِرًا ، يكتُبُ النَّثرَ عنْ كلِّ شَىءٍ يعرِفُه . وقد كانَ مُعْجَبا وَمَفتُونا بكِتَابَاتِ ابنِ المقفع فى كِتَابَيْه : الأدبُ الكَبِير ، والأدَبُ الصَّغِير ، وبكتابَاتِ سهْلِ بنِ هارُونَ . وكانتْ تراجِمُ الكُتُبِ الفَارِسيَّةِ والكُتُبِ الإغْرِيقِيّة إلَى العرَبِيّة ، قد بدأَتْ تغزُو دَكَاكِينَ الورَّاقِينَ فى البَصْرَةِ . لكنْ ماذَا يكتُبُه عمرٌو ؟ وفى أىِّ شىءٍ يكتُبُ ؟ وكيْف يختَارُ لنَفْسِه أُسلُوبا لا يُشْبِهُ فيهِ أحَدًا منْ كُتَّابِ عصرِه ، أسلُوبًا ينفرِدُ به ، ويُعرَفُ باسْمِه ، ويقولُون حينَ يقرَأُونَه : هَذَا هُوَ أسْلُوبُ الجاحِظ ؟ وقبْلَ أن يصِلَ عمرُو بنُ بحرٍ إلى جَوَاب ، جاءَتْه رِسَالَةٌ من الأمِيرِ عبدِ الملك يدْعُوه إلى لقائِه بالشام ، ويسافِرُ عمرٌو لفورِه مع « قُمَامَةَ » رسولِ الأمِير ، ويدخُلانِ معًا

بغْدَاد ، ورأى عمرٌو قُبَّةً خضْرَاء ، فى رأسِها فَارِس على فرَسٍ مُتَوثِّب ، يُسَمِّيها الناسُ : تَاجَ بَغْدَاد . ورأَى الشوارِعَ مُزْدَحِمَةً بالنّاس ، وهم يلبَسُون الثيَابَ السَّوداء ، وبالحمِير ، والجمالِ ، والخيول . ورأى قصْرَ الخُلْد عَلَى شَاطِئِ دِجْلَة الغَرْبىّ ، وقُصُورًا تُشَيَّدُ للبَرَامِكةِ بالقُربِ مِنْه ، ومُعَسْكَرات جيُوشِ الخليفَة بالرّصَافَة . ومَضَى رسُولُ الأميرِ بعمرٍو مُتّجِهًا إلى ديارِ بكْرٍ فى الشَّمَال ، وعينَا عمرٍو لا تكُفَّانِ عنِ التأمُّلِ فيما حولَهُ من حَيَوانَاتٍ ، وآثارٍ ، ونيرانٍ تنْبَعِثُ من شُقُوقِ الأَرْض ، وثُلوجٍ فى قِممِ جِبالٍ لَيْسَت شَدِيدَة البَرد ، وأَنواعَ عجيبةٍ من الأسْمَاك ، والكَراكِىِّ ، وطيُورِ العُقْبَانِ ، والصُّقُورِ ، والغِرْبَانِ ، وحَيَوانات البرَارِى : الضّبِّ ، والذِّئْبِ ، والثَّعْلَبِ ، والخِنْزِيرِ ، وابنِ آوَى .

وطِوَالَ الطرِيق كانَ عمرٌو يحْكِى لرسُولِ الأميرِ قِصَصًا ونَوادِرَ ، فيحكِى مثلَها لهُ الرّسُولُ . حكَى رسُولُ الأميرِ لعمْرٍو فقال :

– ذاتَ يوْمٍ ، تسلّلتْ حيَّةٌ إلى عُشِّ طائِرٍ من الطيورِ المغرِّدة وأكَلت الحيَّةُ البَيْضَ الذِى فى العُشِّ . ورأى الطائِرُ ما فَعَلَتْه الحيَّةُ ببيْضِه فأخَذَ يصفِّرُ فوْقَ رأسِها وهُوَ يطِير ، ويقتَرِبُ من الحيَّة ، فتَفتَحُ الحيَّة فَمَها لتَلْتَهِمَه ، فيفتَحُ الطائرُ مِنْقَارَهُ ويُسْقِطُ حَصَاةً فى فَمِ الْحيّة ، ثم يبْتعدُ عنْها ليأتِىَ بحَصَاةٍ غيرِها . ومازَالَ الطَّائِرُ يُلْقِى بالحصَى فى فمِ الحيَّةِ حتى امتَلأَ جوْفُها بالحصَى فماتَت ، وانْتَقَمَ الطائِرُ لنَفْسِه بموْتِ الحيَّة .

وشاهَدَ عمرُو بنُ بحْرٍ فى سفرَتِه هذِه ، ألْوانا [١٩] من الأحْجَار الملونة ، والمعَادِن . وأثْنَاءَ ذلِكَ كان يُعِدُّ للقائِه بالأَمِيرِ قصيدةَ مدِيحٍ ، ليُغَطِّىَ بالكِلمَةِ الحُلْوَة ، وخفَّةِ الرّوح على قُبْحِ شَكْله . ولم يتَوقّفْ عن الكتَابَةِ حتى والفرَسُ يسيرُ بهِ فى ضوْءِ القَمْر .

---

(١٩) أنواعا .

أفراح وأحزان



لقِىَ عمرٌو الأميرَ عبدَ المِلِك فى قصْرِه بانْطَاكِيَّةَ ، وأعَدَّ لهُ مجلِساً جَمَعَ فِيه الأعيانَ والسُّمار ، وبينَهُمُ عُلَمَاءُ وأُدَبَاء . وألْقَى عمرٌو قصيدَتَهُ فى مَدِيحِ الأمِير ، فلمْ تُعْجِبِ القصيدَةُ الأمِير وَلا الحاضِرين . وأدْرَكَ عمرٌو أنه ليْس بشاعِرٍ ، وإن كانَ يُحْسِنُ إنْشَادَ الشعْر ، وآثر فى تِلْكَ الليلة أن يكونَ راويةً مثَل أبِى جعْفرَ العَنْبرِىِّ ، فراَحَ يحكى القِصَصَ والنَّوادِرَ عمّا عرَفَهُ فى دِيَار الجزِيرة ، وَعمَّا شاهَدَه فى رحْلتِهِ الطوِيلَةِ ، عبْر العراقِ إلَى الشمال ، وعبَر باديَةِ السَّمَاوَة (٢٠) إلى الشام ، فأثارَ عمرٌو الإعْجَابَ والدَّهْشَةَ فى نُفُوسِ الحاضرين .

(٢٠) صحراء واسعة بين الشام والعراق .

كان الوقْتُ صيْفا ، وَخرجَ الأميرُ عبْدُ الملِكِ على رأسِ جيْشٍ ليُوقِع بالرُّوم فى ديارِهم فى آسيا الصّغْرَى[٢١] ، وأنَابَ الأمِيرُ عنْهُ فى غيابه ابنَهُ عبدَ الرحَمن ، وشُغِلَ عبْدُ الرحمنِ بمسئوليَّاتِ الإمَارَةِ فى النهار ، فلمْ يَعُدْ لعَمرٍو منْ وسيلةٍ لقضاءِ الوقْتِ ، سِوَى التَّجوُّلِ فى انطاكيَة ، والتَّنزُّهِ فى البساتين الساحِرَةِ . وفى الليلِ ، كانَ عمرٌو وعبدُ الرحمن يستمعَانِ للغِنَاء وعزْف القِيَانِ[٢٢] . وفى إحْدَى الليَالى راقَتْ لعيْنىْ عْمرٍو جَارِيَةٌ من جوارِى القصْر ، فزَوَّجَها لهُ عبدُ الرحْمن فى نفْسِ الليْلة . وأوْشكَتِ الجَارِية عَلى النُّفُورِ منْ قبْح عمرٍو ، لكنّ عمْرًا استطَاعَ أن يُنْسِيَهَا قبحَه ، بحلَاوةِ حديثِه ، وخفَّةِ رُوحِه ، وما قدَّمَه لهَا من مَالٍ وهدَايا .

وفى الصَّبَاح ، خرَجَ عمرٌو معَ خادمه قُمامَةَ ، فشاهَدَ فى السُّوقِ زِحَامًا ، وسمِعَ صُرَاخًا أمامَ الدّكَاكِين ، واختَلَطَ الصراخُ بضجَّةِ العَرباتِ ونهيقِ الحمير ، ورأَى عُمَّالَ المحتَسِب[٢٣] يضربُون الناسَ بالسِّيَاط ، ووقَعَ سوْطٌ منْها على ظهرِ خادمِه « قُمَامَةَ » ، فأسْرَعَ بالفِرَارِ منَ السُّوقُ ، واحتَمَى عمرٌو بأحَدِ الدكَاكِين ، ولم يغادِرْه إلا بعْد أنْ هدَأَتِ الأحْوالِ ، فدَفَعَ عشرِينَ درْهمًا لصاحِبِ الدُّكانِ ، ثمنا لحَمايتِه منْ سِيَاطِ شُرْطَةِ الْمحتَسِب .

وجاءتِ الأخْبَارُ إلى عمرٍو ، معَ المسافِرينَ القادِمِينَ من البَصْرة ، تُخْبره بزَوَاجِ أُخْتِه منْ رجُلٍ فى حىِّ كِنَانَة بالبَصْرَة ، وبموْتِ أمِّه ، فأسرَعَ عائِدًا إلى البصْرة ، ولم يُقَدَّرْ لهُ بسبَبِ سفَرِه السرِيع ، أن يلْقَى الخليفَةَ هارُون الرشيدَ فى زيارَتِه لحلَبَ ، وأن ينالَ منهُ

---

(٢١) تركيا الآن .

(٢٢) القيان : لقب أطلق على الجوارى المخصصات للعزف على الآلات الوترية .

(٢٣) يماثلون الآن المفتشين المسئولين عن مراقبة الأسعار والأوزان .



العَطَايا والمِنح التى ينالُها منْه العُلَمَاءُ والأدَبَاءُ ، كما لمْ يشهَدْ الانتصَارَ الساحِقَ لصديقِه إبراهيمَ بنِ سيّار ، فى مُنَاظَرةٍ كَلاميَّةٍ ، جرَت بينَهُ وبينَ بِشْرِ بنِ المُعْتَمِر(٢٤) ، أمامَ الخليفةِ الرشيد ووزيرِه يحْيَى بنِ خالِدٍ البرمكيِّ .

وتركَ عمرٌو وراءَهُ زوْجَتَه ، فى رِعَايةِ عبْدِ الرحْمنَ ، فقدْ كانَ شديدَ الخَوْفِ عليْها من الطريقِ ، وشديدَ الخوفِ على نفْسِه ، من العَجْزِ عنِ الإنْفَاقِ عليْها فى البصرة ، وهى التى عاشَتْ فى رفاهيةٍ فى قصورِ الأمراء . وَجلسَتِ الزوجةُ حزِينَةً تبْكِى حظها معَه ، وبُعدَهَا عنْه .

---

(٢٤) أحد علماء المعتزلة الكبار .

كان عمرٌو قد نُسِيَ اسْمُهُ فى البَصْرة ، واشتَهَرَ بكُنْيَتِه : أَبِى عُثْمَان ، وبلقبِه : الجَاحِظ ، فصارَ الناس ينادُونه : يا أَبَا عثمان ، إن أَرَادُوا توقِيرَه[٢٥] ، وينادُونَهُ : يا جاحِظُ ، إن أرادُوا الاستهزَاءَ به . وكان قد بلَغَ الثانِيةَ والعشرينَ من عُمْرِه ، وصارتْ له لِحْيَةٌ مُشَذَّبَةٌ[٢٦] دقيقَةٌ ، لا تُخْفِى عينيْه البارزَتين ، ولا أُذُنَيْه الصغيرتَيْن . وظلّ كما هُوَ بارزَ الجَبْهةِ ، أفْطَسَ الأَنْفِ ، قصِيرَ القامة ، نحِيلَ العُود ، يضْطرِبُ فى سيْرِه ، وهُوَ يلبَسُ فى قدميْه نعلَيْن غالِيَتَيْن ، ويرْتدِى جُبَّةً قاتِمةَ اللون ، وعُمَامَةً بيْضاءَ .

وعلِم الجاحِظُ من صديقهِ قاسم التمّار ، أن صديقَهُ ابنَ سيارٍ النَّظّام ، قد هُزِمَ فى مجْلِسِ جَدَلٍ ومناقَشَةٍ ، جرَتْ بينَهُ وبينَ جارِيةٍ للخلِيفَةِ الرشيدِ فى بغْدَاد ، اسمُها « الحُسَيْنِيّة » .

قالَ له قاسم :

– سأَلَ إبراهيمُ بنُ سيَّار الجارِيةَ الحُسَيْنِيَّةَ ثمانِينَ سُؤالاً ، فأجَابَتْ عنها كلَّهَا أمامَ الخلِيفة . ثم سَألتْهُ هِىَ ثَمَانِينَ سُؤَالاً فلمْ يقدِرْ صدِيقُكَ أن يُجيبَ عنْ سؤالٍ واحِدٍ مِنْها .

فصاحَ الجاحِظُ سعِيدًا :

– ماذا تقُول ؟ يا إلَهِى .

ثم سكتَ لأنهُ وَجَدَ فى قلْبِه شمَاتَةً ، بعثَها حَسَدٌ دفِينٌ وقدِيمٌ لصدِيقِه ، وقال لقاسِمِ التَّمار :

---

(٢٥) احترامه .

(٢٦) مهذبة الشعر بالمقص ونحوه .

- « وفوقَ كلِّ ذِى علمٍ عَلِيم » والكمَالُ للهِ وحْدَه . كمْ أشْتَاقُ إلَى لقاء هذِهِ الحُسَيْنِيَّة ، التى تفوَّقتْ فى الفكْرِ عَلَى إبْرَاهِيم ! !

ولم تَمْضِ شهُور ، حتى التَقَى الجاحِظُ بصديقهِ النظَّام فى مجلِسِ مناقشةٍ ساخِنَةٍ فى قَصْرِ صديقهِ أبِى عمران . دخَلَ الجاحِظُ بهْوَ القصر ، فرأى أبَا يوسُفَ القَاضِى كمْن وقَعَ فى مصْيَدةٍ نصَبَها لهُ صديقُه النَّظَّام . يتملْمَلُ فى مجْلِسِه ، ويجفِّفُ عَرَقَهُ بكَفِّه ، والكُلُّ يضْحَكُ ، والنَّظامُ واقِفُ يتكلَّمُ ، وَيُلوِّحُ بيدَيْه ، وفجأةً ، وقعَت عيناهُ على الجَاحِظ ، فصاحَ بفَرَح غَامِرٍ :

- مرْحَى [٢٧] بالجاحِظ . مرْحَى .

وتعانَقَ الصديقَانِ وجلَسَا يتحدّثَان ، وغادَرَ أبُو يوسُفَ القَاضِى المكانَ غارِقًا فى الخَجل من هزيمتِه فى المناقَشَة ، والعِلْم ، أمامَ جمْعٍ منَ العُلَماءِ والأُدَبَاءِ وأعْيَانِ البَصْرَة . وعندَمَا انْتهَى السَّمَرُ خرَجَ الصديقَانِ من قصرِ أبِى عِمْرانَ ، يمشِيَانِ بينَ النخيلِ على شاطِئِ النهْر . وأخبَرَ النَّظّامُ الجاحِظَ عنْ حَالِه فقَال :



(٢٧) كلمة تعبر عن التحية والحفاوة .

– تأتى علىّ أيَّامٌ يا صَاحِبِى أعِيشُ فِيها فلَا أحْمِلَ هَمًّا للْمَال . وتأتى عَلَىَّ أيامٌ لا أجِدُ فِيها لِنَفْسِى وسيلَةً للعَيْش ، سِوَى نظْمِ الخَرَزِ فى سُوقِ البَصْرَة . وكمْ بعْتُ ثِيابى لآكُلَ بثَمَنِها ، وكم جُعْتُ ، وأكلتُ منْ طِينِ الأرْضِ وحَشَائِشِها . ولا أجِدُ فى نفْسى الشَّجَاعةَ لأسأَلَ العَطاءَ واحِدًا من هؤُلاءِ الأثْرِيَاءِ ، أوْ أمُدَّ يدِى بالسؤَالِ طالِبا دِرْهما أو رَغِيفًا ! !

وبكَى الجاحِظُ لصديقه ، وَبكَى لنَفسه ، فكِلاهُما فى نفْسِ المِحنَة . وفى تِلْكَ اللَّحظة ، قرّر أبُو عثمانَ الجَاحِظُ أن يكُونَ غنِيا ، واسِعَ الثَّرَاء ، ومِمَّا يكْتُبُه قلَمُه ، الذى لم ينشُرْ بعْدُ أَدَبَهُ عَلَى الناس .

السعادة قصيرة العمر

وفَدَ عَلَى البَصْرَة : الأميرُ عبْدُ الرحمنِ بنُ عبْدِ الملك ، ومعَه بُدُورُ زَوْجَةُ أبِى عُثْمانَ الجاحظ . وأخبَرهُ أنّها فى الشَّهْرِ الأخيرِ من الحمْل ، وَبُهِتَ الجَاحِظُ ، وقالَ لعبْدِ الرَّحْمَن :

– كيفَ أعُولُها يا صَاحِبى ، وأبوابُ الرِّزْق مَحْدُودَةٌ أمَامى ، أنَا وغَيْرِى منْ أعْلَامِ البَصْرة ؟

ونظرَ إليهِ عبدُ الرحْمَنِ عَاتِبًا ، ثم وضَعَ فى كفَّيْه أكياسًا بها ألْفُ دِينَار . فخجِلَ الجاحِظُ مما قَالَهُ ، وقالَ :

– يا عبْدَ الرحمن . ستذْهَبُ إلى الحجِّ غدًا . فادْعُ الله لى أنْ يجعَلَ لِوَلَدِى عقْلى ، ووسَامةَ وجْهِ أمِّه ، فإنِّى أخْشَى أن يكُونَ عقلُه مثلَ عقْلِ أمِّه ، ووجهُهُ مثلَ وجْهِى .



كان الجاحِظُ جادًا فى قوله ، لكنَّ عبْدَ الرحمَن ضحِكَ كثِيرًا . ثم قَالَ :

– دعْ ذلكِ لخالِقِ الحياةِ يَا أبَا عُثْمَان .

وأعْلَنَ أبُو عثمان الجاحِظُ مُضطَرا زوَاجَه على الْملأً . ورَأَى الناسَ جَمَالَ زوْجَته « بُدُورٍ » فضحِكُوا ، وتَنَدَّرُوا أيَّامًا لحُسْنِ حظهِ ، وسوءِ حَظِّها . وحانَ وقتُ رحيلِ عبدِ الرحمن ، فودعَه الجاحِظُ متأثِّرًا من شهَامَتِه ، فقد مَنَحه زوجَةً جمِيلَةً ، ومالاً وفيرا ، وبيْتا واسِعًا يُطِلُّ على نهْرٍ فسِيح(٢٨) .

غير أن سعَادَةَ الجاحِظِ لم تدُمْ طوِيلاً. فقد وُلِدْ لهُ ابْن ، يحمِلُ وجْهَهُ هو ، وكبرَ الولَدُ فإذا بِهِ متخَلِّفُ العقْل ، محدودُ الذكاء . ولم يخفِّفْ عن الجاحِظ همَّه ، سِوَى أنْ وَلَدَه قد مَات ، حزِنَ عليْه أياما ، ثم شعَرَ بالرَّاحة . ونفَرَت زوْجَةُ الجاحِظ منه بعْدَ موْتِ وليدِها ، فآثَرَ فِرَاقَها ، وآثرت فِراقَه ، وحَمَلَها الهَوْدَجُ(٢٩) فى قافِلَةٍ مسافِرَةٍ إلى قصْرِ الأميرِ عبدِ الرحمنِ .

---

(٢٨) واسع .

(٢٩) مركب خاص بالنساء تحمله الإبل فى السفر الطويل .

فى البيتِ ، المُطِلِّ عَلى النَّهر ، عاشَ الجاحِظُ وحِيدًا ، يزُورُهُ أحيانا « يَمُوتُ » ، ابنُ أخته ، فيعلِّمُه الجاحِظُ أو يُمْلى عليه . كانَ الجاحِظُ يُحَاوِلُ ألا يقَعَ ثانِيَةً فى ضائِقَةٍ مَالِيّةٍ ، فالمَالُ الذِى كانَ فى يدِهِ ، لم يبقَ منهُ سِوَى القليل . وحاجةُ الأصدِقَاء النابِهين للمال تدْفَعُه إلى معاونَتِهم من مَالِه . لكنَّ ما أَلفَهُ الجاحِظ مِنْ رَسَائل لم يلْقَ رَواجًا لدَى الورَّاقِين[٣٠] ، كانُوا يأخذُون منْهُ ما يكتُبُ ، ويعرضُونَهُ لمن ينسَخُ عنْهُ نسخةً بثَمنِها ، فلا يجدُ قبُولاً لَدَى الناس . فأيْنَ اسمُه مِنَ اسْمِ سهْلِ بنِ هارون ، أو مِنَ اسْمِ ابنِ المقفّع ؟ ومنْ يعرِفُ فضْلَ الجاحِظ ، سوَى رِفَاقِه منَ العُلَماءِ والأُدَباء ، وأكثَرُهُم فُقَرَاءُ ، شأنهُم فى كل عصْر ومِصر[٣١] ؟

واهتَدَى أبُو عثمان الجاحِظَ إلى حِيلة . كانَ يكتُبُ أوْ يُملى رَسَائِلَه ، مما يختَزِنُه عقلُه منْ مَعَارِف ، ومِمَّا تعيهِ ذاكرتُه منْ مُشاهَدَاتٍ وحِكَايات ، ثم يُقَدمُها للورَّاقِين ، عَلَى أنّها من تأليفِ ابنِ المقَفَّع ، أو سهْل بنِ هارون . ورُبَّما عَتَّق[٣٢] بالحَرارَةِ والتُّرابِ أوْراقَ كِتَابَاتِه هُو ، وقدمَها للورَّاقِينَ ، على أنها نُسخٌ نادِرَةٌ من كِتَابٍ لِمؤَلِّفٍ قديم ، ابْتَاعَها الجاحِظُ خِلاَل أسْفَارِه فى الديار والبُلْدَان . وصدَّقَ الوَرَّاقُون خديعَةَ أبِى عُثْمَانَ الجاحِظِ لهمُ ، وصدقَهُ الناس ، فصارُوا ينْسَخُونَ هذِهِ الكتَابات ، ويدفَعُونَ أموالا ، يصِلُ القِليلُ منْها إلى الجَاحِظ ، ويذهَبُ أكثَرُهَا إلى جيُوبِ الوَرَّاقِين .

---

(٣٠) باعة الكتب .

(٣١) فى كل زمان ومكان .

(٣٢) جعلها قديمة .

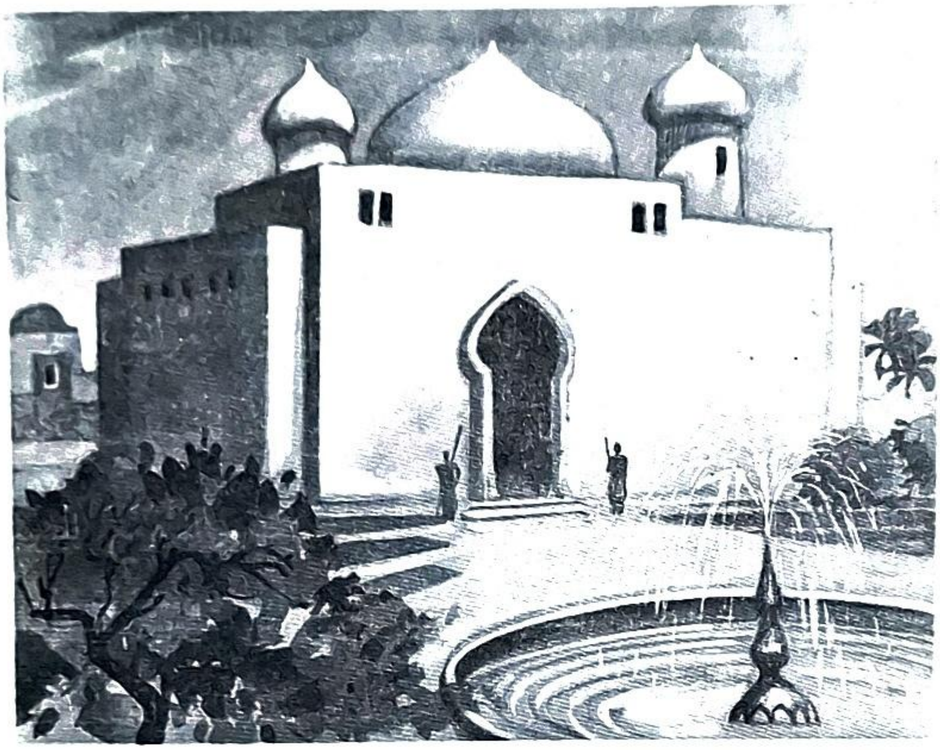


ولكن الخديعةَ لا تدُوم طويلاً. فالحقِيقَةُ تتكشَّفُ فى النِّهاية ، وتُصْبِحُ فِعْلتُه حديثَ البَصْرَة .استنكرها الكُلُّ فى البِدَاية ، ثم تحوَّلَ الاستنكارُ إلى إعْجَاب ، ولم يكُن الإعْجَابُ بالخديعة ، وإنما بالبَرَاعَةِ التى كشفَتْها كتابَات للجاحِظ ، نسبَها إلى غيرِه . اكتشَفَ الكُلُّ فى البَصْرة ، وفى العِرَاق ، والشامِ ، ومِصْر ، مهارةَ الجاحِظِ ككَاتِبٍ لا نظيرَ لهُ من قَبْل . تجاوَزَ بأدَبِه وعلْمِه الغزير ، كتاباتِ عبدِ الحميدِ الكاتِب ، وابْنِ المقفع ، وسهلِ ابن هارُون . وكفَّ(٣٣) الجاحِظُ عندئِذٍ عن نِسبةِ كُتُبِه لغيرِه ، بعْد أنْ لقَّنَ عصْرَه درْسًا عرَفَ

(٣٣) توقف .

بهِ أهلُ زمانِه فَضْلَهُ علمًا وأدبًا . وتنافَسَ عليْهِ الورَّاقُون يشترُون أُصُولَ كُتُبهِ الأُولى ، المحدودَةِ الصَّفَحَات ، وفى شتَّى الموضُوعَات . وأُعْجِبَ الناسُ بأدَبِ الجاحِظ لسهُولَةِ أُسلوبِه ، ويُسرِ ألفَاظِه ، وبساطَةِ صورِه وتشْبيهاتِه ، وقُرْب فهْمِه ، ووضوحِ فكْرِه ، لأوْسَاطِ القارئِينَ والكَاتِبِين .

وتوافَدَ الأمَرَاءُ ، ورسُلُ الأُمَرَاء على البَصْرة ، يصطنِعُون قلَمَ الجَاحِظِ لأنْفُسِهِمْ ، وأغْرَاضِهِم السِّيَاسِيَّة . صار بوسْعِ الجاحِظِ أنْ يعمَلَ فى منْصِبِ أوْ وظِيفَةٍ بأىِّ بَلاَطٍ من بلاطِاتِ الأمراءِ فى فارسَ أو فى ديارِ العَرَب . لكنَّ الجاحِظَ المفكرَ ، آثَرَ البقَاءِ قَلِيلا فى البَصْرة ، ليتدبَّرَ أمرَه ، ويحتاطَ لنفسِه من مزالِقِ السِّياسةِ والصِّرَاعِ بينَ الفُرْسِ والعَرَب ، وبينَ الأمَرَاءِ والأمرَاء . وصَارَ الشعَرَاءُ الكبارُ مثلُ أبِى نواس يفِدُون عليْه ، ليُنشِدُوه أشْعَارَهم ، ويحكِّمُوه فى هذِهِ الأشْعَار ، وَوَجَدَ الجاحِظُ نفْسَه يكْتُبُ فيمَا يكتُبُ فى عِلْمِ الكَلاَم ، ويشْرَحُ بإخْلاصٍ آراءَ صديقِه إبراهيمَ بنِ سيَّارٍ النَّظَّام . وتجرَّأَ الجاحِظُ فكتَبَ كتابَه الكبير : «الإمامة» ، فأثارَت آراؤُه ، ووضوحُ أفكاره ، وجمالُ أسلوبه ، واستطراداتُه المتنوعةُ إعجَابَ عامةِ الناسِ وخاصَّتهِم . بلْ تجرَّأَ وكتَبَ آراءَهُ فى الشُّعُوبية ، التى تُزَاحِمُ العَربَ فى ديارِهم ، وتسخَرُ من فكْرِهم وتاريخِهم وعادَاتِهم ، بل تجرَّأ وكتَبَ آراءَهُ فى الشُّعَرَاءِ والعُلَماءِ والأُدَبَاء وبينَهُم الأساتذةُ والأصْدِقَاء . وصارَ شِعَارُه : « عشْ كَمَا تريدُ أنْت ، لا كما يُرِيدُكَ النَّاس » .



جاءتِ الأخبارُ إلى الجاحظِ بانقلابِ صديقِهِ عبدِ الرحمن ضدَّ أبيه الأميرِ عبدِ الملك ، وشهادتِه لدى الخليفةِ هارونَ الرشيد ضدَّ أبيه ، بأنَّهُ يناصِرُ البَرامِكَة .

وفُجِعَ الجاحِظُ فى صدِيقه ، وازدَادَ إصرَارُه على البقَاءِ فى البصْرَة . ووقعَتْ نكبَةُ البرامِكةِ (٣٤) ، ثم ماتَ الخليفةُ الرشِيد ، وآلتِ الخلافةُ إلى ابنِه المأمُون . ومع ذلِك ، ظلَّ الجاحِظُ متمسكًا بالبقَاءِ فى البصْرَة ، يخالِطُ الأفَّاقِين ، والمغامِرَين ، والشُطَّار ، واللصُوص ، ليكتُبَ عنْهُمْ يومًا كُتُبًا ورَسَائِل .

ووصلتْ مُؤَلفَاتُ الجاحِظ إلى الخليفةِ المأمُون ، فقرَأَها ، وأُعْجِبَ بِها ، فبَعثَ إلى البصْرَةِ برُسُله ، فحَمَلوا الجاحِظَ إليْه ، وأدخلُوه علَيه فى قصْرِ الخُلْد ، فوجَدَ بينَ يديْه

(٣٤) نكبة البرامكة قتل فيها سائر البرامكة وأعوانهم ، لأنهم استبدوا بالخلافة وبالأموال العامة ، وأثاروا غضب العرب عليهم لأنهم من الفرس .

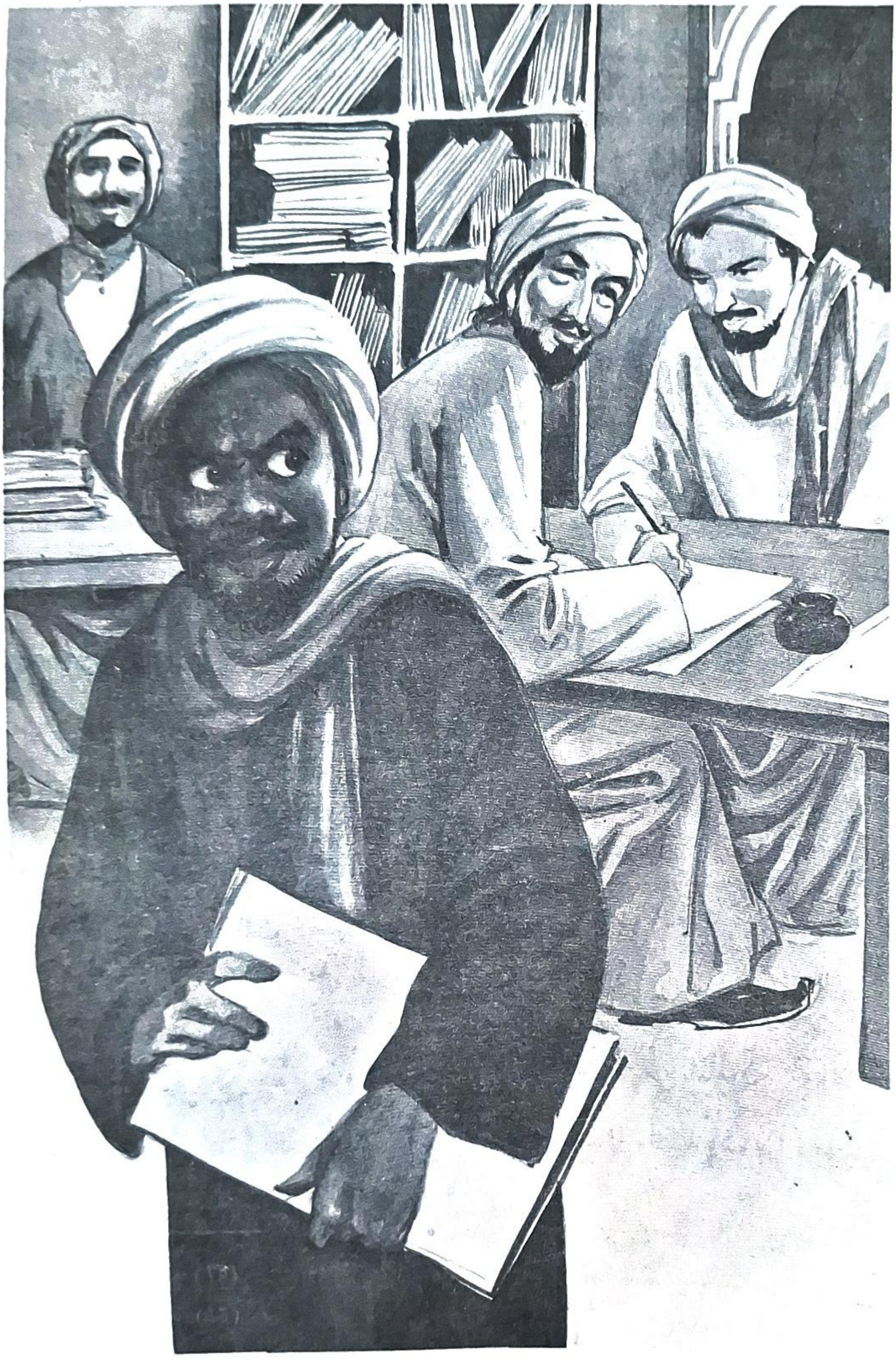
مؤلفاتِه بالعشَرات ، وكانَ الجاحِظُ قدْ جاوَز الأربعينَ من عمرِه . وحدّثه المأمون حديثَ خبيرٍ بالعِلْم ِ والأدَب ، وأجابَه الجاحظُ عما سألَهُ فِيه ، فَزادَ قدْره فى عينِ المأمُون ، وقالَ له :

– أخبرَنى ِ الناسُ عن كتُبك . وحين قرأتُها ، وجدْتُ أن ما بِها من إحْكَام الصَّنْعة ، ووفْرَةِ العِلْم يزِيدُ عمّا قالُوه لى ِ . وهاأنْتَ الآنَ ترتَفِعُ بحدِيثِك فوْقَ كتُبك ، فكُنْ عندِى ، فى ضيافَةِ القاضِى أحمدِ بْنِ دُؤَاد ، إلى أنْ أنْظُر فى أمْرِ الانتِفَاع ِ بِك .

لكنَّ الفِتَن نشبَتْ من جدِيدٍ بالعراق ، فأسرَع المأمُون ليَقْضِىَ علَيْها بنفسِه ، ووصلتِ الفِتَنُ إلى بغدَادَ نفِسها ، فَخَشِىَ الجاحِظُ على نفسِه ، وأسرَع بالرحيلِ عائدًا إلى البصْرَة . ومرَّ عامان ، وعادَ المأمُون إلى بغْداد ، وبحَثَ عنِ الجاحِظِ فلم يجدْه ، فأرسَلَ إليهِ فى البصْرة ، يستقدِمُه إليهِ فى قصْرِ الخُلْد .

دخلَ الجاحِظُ على المأمُون ، فرآهُ على سرِيرٍ من الأبنُوس ، موشًّى بالذَّهَب ، وفوجِئَ الجاحِظُ بالمأمُون يعهَدُ إليهِ بديوان الرسَائِل ، وأمرَه بالقيَام ِ بمسئُولياتِه فى الديوانِ من الغدِ .

وتسلَّمَ الجاحِظُ وظيفَتَهُ الجدِيدة ، خلَفا للفَضْل بن سهْل بنِ هارُون . ووجَدَ الديوانَ ملِيئًا بكُتَّابٍ أنِيقى الثِياب ، ظُرَفاءَ الحدِيث . وحدثَهُم الجاحِظُ فاكتَشَفَ أنهُمْ فارغُو العقُول . وعبَثًا حاوَلَ أنْ يُمازِحَهُم ، أو يتَنَدَّر معَهُم . وسمِعَهمُ وهُمْ يتهامَسُون بقُبْحهِ ، ويتحدَّثُونَ عن وَضَاعَةِ أصلهِ . ونشبَ صِرَاعٌ من الغَمْزِ واللَّمز ، بيْن الجاحِظِ وبينْ كُتاب الديوان ، وبينَهم : عمْرُو بنُ مَسْعَدَة ، وعُمَرُ بنُ فَرَج ، ونجاحُ بنُ مَسْلَمة ، وأحمَدُ ابنُ عبْد الوهاب . وأخرَسَهم الجاحِظُ فى ثوْرَته لكرَامَته ، وذهَبَ إلى المأمُون مُستعْفِيًا من منصبِه ، فاستمَعَ إليه الخليفة ، وعظُم قدرُه فى نظَرِه وأعْفَاه ، واستبْقَاه إلى جانبِه فى



بغْدَاد ، ووصَلَه الخِليفَةُ دائِمًا بهدايَاه ، وعطَايَاه . والجاحِظُ يكتُبُ ما شَاء ، فى ما شاء ، وَفى مَنْ شَاء ، آمِنا إلى حِمَايةِ المأمُونِ له ، ورِضَاه عنْه . وصارَ كُتَّابُ الديوانِ سعَدَاء ، فلَوْ بقى ِ الجاحِظُ فى الدِيوان ، لأفلَتْ نجُومُهُم (٣٥) .

بقِىَ الجاحِظُ سِنِينَ عديدةً ، أربَعَ عشرةَ سنَةً ، ملازِمًا للمأمون ، يحضُرُ مجَالِسه ، ويشهَدُ زوَاجَه ، ويصحَبُه فى أسْفَارِه . والمأمُونُ يخاطِبُه متودِّدًا : يا أَبَا عُثْمَان . ويُنْسِيه دائمًا أحْدَاثَ ماضِيه ، وشقاءَ أعوامٍ أربعِين خلَتْ فى البصْرة ، وفى أسفارِه الطويلة . كانَ الجاحِظُ يبدُو فى كتاباتِه كما لوْ كانَ يغمِسُ قلمَه فى مِدَادِ قلبِه ، وكما لوْ كان يدوِّن حديثًا يتحدَّثُ بهِ بِلسانِه ، حتى ماتَ المأمُون وهو معَه فى قريةٍ بالقُرْبِ من طرسُوس بالشَّام . وكانَ الجاحِظُ قد بلَغَ من العُمْرِ ثمانِىَ وَخمسينَ سنة .

وعادَ الجاحِظُ إلى بغْداد ، وبايَعَ مع المبايعين للخليفةِ المعتصِم ، وانتقَلَ مَعَهُ إلى عاصمتِه الجدِيدة « سُرَّ من رأى » (٣٦) . ثم وَقعَتِ الجفْوَة (٣٧) بينَ الَجاحِظ وصدِيقِه النَّظَّام . وصارَ كِلاهُما يشكُو الآخَرَ للنّاس . فقدَ صَارَ النظَّام يغارُ من التفَافِ الناسِ حوْلَ الجاحِظِ ، ومن سُرعةِ لسانِ الجاحِظ فى المناقَشَة ، ونَصَاعةِ بَيانِه . كما كانَ الجاحِظُ يغارُ منْهُ فى صِبَاه وشَبَابِه . وظلتِ القطِيعَةُ بينَهُما قائِمةً ، حتى مَاتَ النَظَّام ، وللجاحِظِ من العمرِ اثنتانِ وسبعُونَ سنة :

لكنّ الجاحِظَ لم يكنْ مُقَرَّباً من الْمعتَصم ، كما كان مقرَّبًا من المأمُون ، وإنما صارَ صديقًا وعوْنا ومشِيرًا للوزيرِ الكاتبِ ابنِ الزيات ، وكان عالِما وأدِيبا وشاعِرا ، وسياسيا

(٣٥) غابت شهرتهم ، وضاع ما هم فيه من مجد وجاه .
(٣٦) هى الآن مدينة سامراء بالعراق .
(٣٧) الهجر والفرقة .



ماهِرا ، ومفكرًا طمُوحا . وأجهَدَ الجاحِظُ نفْسَه ليُكيِّفَ حياتَه مع ابْنِ الزيات ، الحَادِّ المزاج ، المتقلِّبِ الهوَى ، يرْضَى فيصِلُ بِرِضَاه ومالِه منْ يرْضَى عنْه ، ويغضَبُ فيصِلُ بهِ الغَضَبُ إلى الحقْدِ المدمِّر .

ولقد صنَعَ ابنُ الزيّات أتُّونًا (٣٨) ، به أسيَاخٌ من حدِيدٍ تُحْمَى ، ويعذِّبُ بهِ من يغضَبُ عليْه . وكانَ الجاحِظُ يُجْهِدُ نفْسَه ، وهُوَ فى شيخُوخَتِه حتى لا يناصِرَ ابْنَ الزيّاتِ علَى أعدائِه ، فينالَ كراهِيتَهم ، وترصُّدَهُم له حِينَ تتغيَّرُ الأحوال ، وتدُورُ عجَلَةُ الأيام .

وماتَ المعْتَصِمُ ، ووَلِىَ الأمرَ بعدَهُ الخليفةُ الواثِق ، وأرادَ ابنُ الزيَّاتَ الانسحابَ من وَزَارَتِه ، لكنَّ الخلِيفَةَ الواثِقَ استبقَاه فى وزَارَتِه ، فمضَى يبطِشُ بخُصُومِه كما كانَ يفعَلُ بهِم فى عهْدِ الخلِيفَةِ المُعتَصم . وكانَ الجاحِظُ يعِظُه فلاَ يتَّعِظ . ووقعَتِ الجفْوةُ بينَهُما ، فهجَرَهُ الجاحِظ عائدًا إلى البصْرَة ، وقد صارَتْ لهُ فيها ضَيْعة تُسمَّى بالجَاحِظِيَّة . وبَدَأَ يُمْلِى كِتابَه « البُخَلاء » على الوَرَّاق الْمخْتَصِّ بنشرِ كتبه ورسائِلِه ، وكان هدفُه بهذا الكتاب أن يسترْضِىَ بهِ الوزيرَ : ابنَ الزيات .

---

(٣٨) الأتون : الفرن أو الموقد الكبير .

الهرب من سور قصر



انتهى الجاحِظُ من كتابه « البُخَلاَء » ، وحملَه هُوَ وكتُبًا أُخْرى معَه ، وغادَر البصرَةَ إلى سامِرَّاء ، ولهُ منَ العمرِ ثلاثٌ وسبْعُون سنَة ، فوجَدَ الخلِيفَةَ الواثِقَ قد مَات ، ووجَدَ الوزِيرَ ابنَ الزيَّاتِ مشغُولا بمن يكُونُ الخليفَةَ بعْدَ الواثِق . وكان ابْنُ الزيات يطلبُها لمحمدٍ ابنِ الواثِق ، والقاضِى أحمدُ بنُ دُؤاد يُرِيدُها لعمِّه جعفرَ المتوكِّل . وَانحازَ بنُو العباس إلى جعْفَرِ المتوكِّل . فكانَ هُوَ الخلِيفَة .

واستوزَرَ الخليفةُ المتوكلُ ابنَ الزيات . وحِينَ انفرَدَ الوزِيرُ بالجاحِظ فى قصره ، قالَ لهُ وكأنّهُ يقرأُ ما سيكُونُ فى الغيْب :



– إنّ بيْني وبينَ الخليفةِ الجديدِ من أسبابِ القطِيعة ، ما يكْفِي لقتْل أُمَّة . على خُصُومَةٍ معَهُ وهوَ أمِير . ومَعُه الآنَ القاضِي أحمدُ بنُ دُؤَاد يدبِّر له مكيدةً ضِدِّي ، لأنّهُ يكرَهُني .

فقالَ لُه الجاحظ مُشْفِقًا وناصِحًا :

– فاستعْفِ(٣٩) من الوَزَارة . وانسحِبْ منها .

فنظرَ إليه اِبنُ الزيات ، وقالَ ضَاحِكا :

(٣٩) اطلب إعفاءك من تولِّيها .

– دعْنا نعِشْ يومَنا يا أبَا عُثْمان . ولْنَقرأْ كتَابَك هَذَا : البُخَلاء

وفرِحَ الوزِيرُ بالكتابِ المهْدَى إليهِ فى البدءِ وفى الختام . ومضَتْ أربعُون يومًا ، دخَلَ بعدَها رجالُ الخليفةِ ، وقبَضُوا على ابنِ الزيات ، ونهبُوا قصرَه ، وساقُوا أمامَهم أهْلَه . ونجَحَ الجاحِظُ فى الفرَار . قفزَ من فوْقِ سُورِ القصْر ، فسقَطَ صارِخًا يتألَّمُ من سَاقِه ، ومشَى يعرُج عليْها حتى بَلَغَ بابَ بيْته ، قريبًا من قصرِ ابنِ الزيات .

ومضَتِ الأيَّام ، وظنَّ الجاحِظُ أنهُ قد نَجَح فى الاختِفَاء . وجاءتْه الأخبَارُ من خدمِه ، بمصرَع ابن الزيَّات فى الفُرْن الذى أعدَّه لخُصُومه ، وكلَّما طلَبَ الرحْمَةَ قال لهُ مُعَذِّبُه ، ما كانَ هو يقولُهُ لخصُومِهِ :

– الرحْمَةُ خوَرٌ(٤٠) فى الطَّبيعَة . . أيُّها الوَزِير .

وأرشَدَ أحمدُ بنُ دُؤَاد الشُّرْطَةَ إلى أعْوَانِ ابنِ الزَّيَّات ، للقضَاءِ عليهم . وبلَغَ الخَبَرُ الجاحِظَ ، فخرَجَ راكِبًا حِمارَهُ فى الليْل ، مُسرِعًا إلَى البَصْرة ، لكنَّ رجالَ الشُّرْطَة قبَضُوا عليْه ، وأوثَقُوا قدَميْه بالأغْلال(٤١) ، وساقُوهُ إلى القاضِى أحمدِ بنِ دُؤَاد .



(٤٠) ضعف ووهَن .

(٤١) القيود من حديد .

محاكمة مرحة



أُدخِل الجاحِظُ مقيَّدَ القدمين بالحديد ، على القاضِى ابنِ دُؤَاد ، فرأى معَهُم عددًا من أصدقَائِه ، وكانُوا يضحَكُون ، وبينَهُمْ أبُو الوليدُ ، ابنُ القاضِى نفسِه ، واسحاقُ الموصَلى ، وأبُو العَيْنَاء ، ومحمد بنُ منْصُور . وتمالَكَ الجاحِظُ ، شيخُ الكتابِ نفْسَه ، وألقَى بالتحيّةِ بصوتٍ واهِنٍ راعِش . وسألَهُ القَاضِى : .

– لم هربت ؟

فقالَ الجَاحِظ :

– خِفْتُ أن أكُونَ ثانِىَ اثنَينِ إذْ هُما فى التَّنُّور[٤٢] .

(٤٢) الأتون ، أو الموقد الكبير.

فقالَ قاضِى القُضاة :

– ما عرفنَاك إلا متناسيًا للنِّعمَةِ ، جاحِدًا للجَمِيل ، معدِّدًا لمسَاوِىءِ الناس .

فقال الجاحِظ :

– يا أبَا عَبْدِ الله . قد تُصْلِحُنِى الأيَّام .

فقال لَه ابنُ دُؤَاد :

– كيفَ ، وقد أسأْتَ الاختيار ، فبقِيتَ مع ابْنِ الزَّيَّات ؟

فقالَ لهُ الجاحِظُ ، بلهجَةٍ حكِيمة :

– هوِّنْ عليْك أيدَكَ الله . فلأنْ يكُونَ الأمرُ لَكَ علَىَّ ، خيرٌ منْ أنْ يكونَ لىِ عليْك . ولأنْ أُسِيىءَ وتحسِنَ ، خيرٌ عنْدَكَ منْ أنْ أحسِنَ فتُسىءَ ، ولأنْ تعفُوَ عنى فى قُدْرتك ، أجملُ من الانْتِقَامِ مِنِّى .

فسكتَ ابنُ دُؤَادَ وقال :

– ما عَلِمتُك إلا مُزَوِّقا للكَلام . وقد جعلْتَ لسانَك أمَامَ قلْبِك .

ثم التفَتَ نحْو البَاب . وقال :

– جِيئُوا بحدَّاد .

فصرَخَ الجاحِظُ قائلا :

– أعزَّ الله القاضَى . هل يأتِى الحدَّاد ليَفُكَّ عنِّى قيْدِى ، أمْ ليَزِيدَ فيه ؟

فقالَ لَهُ القاضِى :

– بلْ ليَفُكَّ عنْكَ قُيودَك يا أبَا عُثمان .



وأغمَضَ الجاحِظُ عينَيه ، وتنَفَّسَ مُسْترِيحًا . وجاءَ الحدَّادُ ، وبدَأَ عملَه فى فكّ الأغْلاَل . وَأرادَ إسْحَاق الموصَلى المداعبَةَ ، فغمَزَ إلى الحَدَّاد لِيُطِيلَ مُهِمَّتِه ، ويُؤلِمَ ساق الجاحِظِ ، التى أوجَعَتْه يومَ أنْ قفزَ سورَ القصْر . ورأىَ الجاحِظُ غمزةَ إسحقٍ للحَدَّاد ، وتبَاطُؤَ الحدَّاد فى فَكّ القَيْد ، فرفَعَ الجاحِظ كفَّهُ ، ولطمَ وجْهَ الحدَّاد ، وهُوَ يقُول :

– أسرِع ، واعْملْ عمَلَ شَهْرٍ فى يوم ، وعَمَل يومٍ فى ساعة ، وعمَلَ ساعةٍ فى لحظَة . فالضررُ علَى ساقى ، وليَس على ساقِ الموصَلى .

وضجَّ منْ فى المجلِس بالضَّحِك . وظَلوا يضحَكُون ، حتى تحامَل الجاحِظُ على نفسِه واقِفا ، وهو يقُول للقاضى :

– الحمدُ لله . كنتُ أعْلَمُ أنَّكَ لنْ تُسىءَ إلى صديقٍ يا أبَا عبْد الله .

وأخَذَ الغِلْمَان الجاحِظَ إلى الحَمّام فاغْتَسَل ، وَلَبسَ ثيابا جدِيدَةً ، وخُفًّا ، وعادَ إلى مجلِس القاضِى ، فوجدَهم قد أفْسَحُوا له مجلِس الصَّدَارَة ، فجلَسَ الجاحِظُ فِيه . وقالَ لَهُ القاضِى بمرح :

– الآن . أسمِعْنَا حديثَك يا أبَا عُثْمَان .

الهرب من سر من رأى



دهَم الفَالجُ(٤٣) قاضِىَ القُضَاة . ودخلَ عليه الجاحظ يعودُه(٤٤) فى قصره بُسرَّ من رأى . وبدأَ القاضِى يشكُو من الطِّبِّ ، وعجْزِ الأطباء عن عِلاجِه ، وقدَّم له الجاحِظُ كتابَه : « نقْضُ الطب » ، وقد أهدَاهُ إليْه .

وولى القضاءَ والمظالم بعدَه ابْنه ، صديقُ الجاحِظ ، أبُو الوليد محمد . ورشَّح أبُو الوليد أبَا عثمان الجاحِظَ للخلِيفةِ ، ليكُونَ مُؤَدِّبا لولدِه محمدٍ المنتصِر . وذهَبَ الجاحِظُ كارِهًا لِيُقَابِلَ الخليفَةَ ، واستبشَعَ الخليفةُ دمَامَةَ وجهِ الجاحِظِ ، وقالَ لأبِى الوليدِ :

---

(٤٣) فاجأه الشلل النصفى .

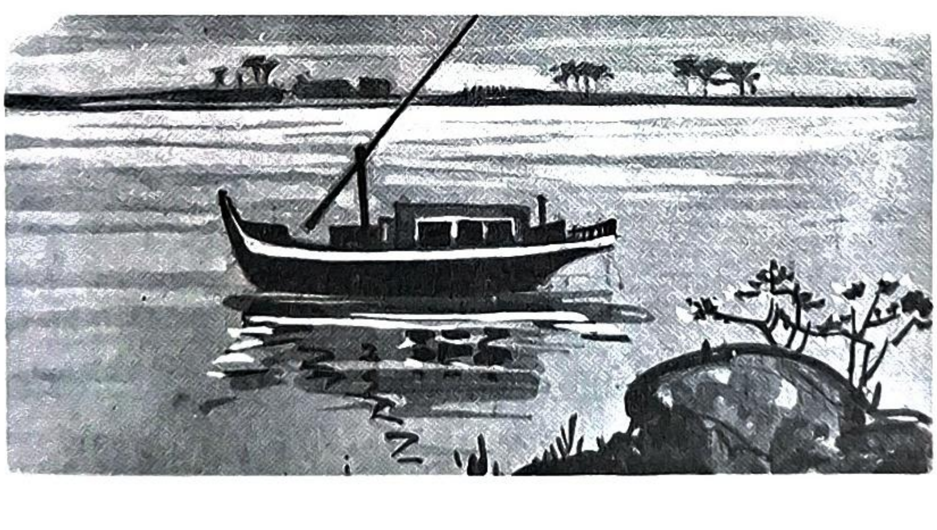
(٤٤) يزوره فى مرضه .

– لقد سئِمْنا من العواجيز يا أبَا الوليد . أُرِيدُ شبَابًا يعملُون عنْدِى .

وصرفَ لهُ الخليفَةُ عشرَةَ آلافِ دِرْهم ، أخَذَها الجاحِظُ وخرَجَ إلى الطريق . ولم يَعُد الجاحِظُ إلى بيته ، فقد لقى عنَد النهر الأميرَ محمد بنَ إبراهيم المصْعَبِىّ ، جالِسًا فى حرَّاقتِه (٤٥) . فانحَدرَ الجاحِظُ من شاطىءِ النهرِ إليْه ، وعَرَض عليهِ حمْلَه معَهُ إلى بغْدَاد . فأذِنَ لهُ الأميرُ رُبَّما ليُسلِّيَه بحديثِه فى الطريق . وعنَد فمِ نهْرِ القَاطُول ، انحرفَتِ الحرَّاقَةُ فغَمرَتِ الشَّمْسُ وجْهَ الجاحِظِ ، فنهَض الأميرُ بنفْسِه ، فجذَبَ ستارةً ، وهو يقول :

– سنخفِّفُ عنْك عَنَاء (٤٦) السفَرِ بالظِّلِّ يا أبَا عُثْمانَ .

وعندَ بغْدَاد ، منَح الأمير الجاحِظَ ألْفَ دِرْهم ، وصعَدَ الجاحِظُ إلى الشاطىءِ . وباتَ ليْلتَهُ فى بغْدَاد . ثم واصَلَ رحِيلَه إلى البَصْرَة .



(٤٥) سفينة للأسفار الخاصة فى الأنهار ، تشبه اليَخْت الآن .

(٤٦) تعب ومشقة .

سباق مع الزمن



فهِمَ القاضِى أبو الوليد مُحمدٍ سِرَّ رحِيلِ الجاحِظِ المفاجِىءِ ، وضاقَ بما صنَعَهُ الجاحُظ ، لكنه لم يلْبَث أنْ رضِىَ عنْه ، حين رأى الجاحِظَ يبْعثُ إليهِ بما يُؤلِّفُه من كُتُب ، فراحَ بدوْره يبْعَثُ إليهِ بالْمَال .

وعاشَ الجاحِظُ فى البَصْرة واهِنَ البَدَن من الشيخُوخَة ، ضعِيفَ النفْسِ ، يسيرُ وفى إحْدَى ساقَيْه ثِقَلٌ يلازِمُه ، لكنَّ الجاحِظَ ظلَّ يُملى على الوَراق ، وعلى ابن أخته « يموت » ، وحين لا يجِدُ أحَدَهُما معَه ، يقرِّبُ الورَق من عينَيه ، ويُواصِل الكتَابَةَ بنفْسِه ، وكأن بيْنَه وبينَ الزمَنِ سِبَاقًا . وتصِلُ أخبَارُ العواصِفِ السِّياسِية فى البلاد إلى أُذُنَى الجَاحِظ فلا يكترِثُ بِها ، ويُواصِلُ كِتَابَته . ويواصِلُ الوزِير أبُو الوليد إرْسَالَ روَاتبِه الشهريةِ وعَطايَاه السنويةِ إليْه ، حتى غضِبَ الخليفَةُ على أبِى الوَليد ، وأقْصاه عن منصبِه ، ووضعَ مالَه ومالَ أبيهِ تحتَ الحراسة ، وظلَّ أبو الوليد فى سِجْن بغْداد حتى مَات ، وماتَ أبُوه بعده بسنَةٍ محسُورًا عليه . وكانَ الجاحِظُ قد بَلَغ من العُمْر ثمانِينَ سنة .

ودامتْ عاصِفَةُ الفقْدِ فى نفس الجاحِظِ ثلاثَ سنوات ، عادَ بعْدَهَا إلى الكِتَابَة ، وأَخَذَ يجمَعُ مادَّةَ كتابِه الموسُوعىِّ الكبيرَ [٤٧] : « الحيوان » . ويُمْلِى كتَابا : عن « الزرْعِ والنّخْلِ » ، وكتابًا آخرَ عن : « البُلْدَان » . واعتَذَرَ بمرضِه عن السَّفَرِ للقاءِ الخليفَة ، فقد أصابَه النَّقرِسُ فى ساقِه اليسْرى ، وبدأَ المرَضُ يزحَف صَاعِدًا من قدمهِ وإبهامِهِ اليمنى حتى شملَها ، وسقطَتْ ساقُه اليُسرَى فى الشَّلَل التّام .



(٤٧) المتعدد الموضوعات ، يشبه أن يكون دائرة معارف الآن .

عجزَ الجاحِظُ عن الحرَكَة ، وراحَ « يمُوت » ابنُ أخته يخدمُه ، ويقرأُ له ويكتبُ ما يُمليه عليه ، حتى قارَبَ الجاحِظُ عَامَهُ السادسَ والتسعينَ . وراحَ أصدقَاءُ الجاحِظ وتلاميذه يعودُونَه (٤٨) ، ويُسرُّون عنه ، وهو يمَسحُ دُمُوعًا تَسِيلُ برغمِه من عيْنَيْه . وبينَ الزائرين كانَ الْمُبَرِّد ، عالِم النحوِ الكبير ، وسأَلَ المبرِّد الجاحِظَ :

– كيفَ أنْتَ يا أَبَا عُثْمان !

فقال لهُ الجاحِظُ بصوْتٍ واهِنٍ :

– وكيفَ يكونُ من نصْفُه مفْلُوج ، لوْ حُزّ بالمناشِيرلما شَعَرَبِهِ ، ونصْفُه الآخرُ مُنْقرِس ، لو طارَ الذُّبَابُ بقُرْبه لآلَمهُ . وأشَدُّ من ذلِكَ علىَّ تقَدُّمُ العُمْرِ بِى .

وطوالَ سبعة أشهُر ، كانَ الخليفَةُ يبعَثُ لعيادتِهِ بالأطبَّاء ، والأغنِياءُ يتركُونَ عنْدَه أكياس الدرَاهِمِ والدنَانِير . ولم يُعدْ مِنْ حديثٍ فى البَصْرة إلا عن فضْلِ الجاحِظ ، وأدبِ الجاحظ ، وفكْرِ الجاحِظ .

وفى طُول البلادِ وعرضِها كانت مكتَباتُ النّاسِ الخاصَّة مليئةً بصُفُوفٍ من كُتُبِ الجاحِظ ورسَائِله ، وقد بلغَتْ عِدتُها ثلاثمائة وخمسين كتابًا ورسالةً : فى الفلسفَةِ والاعتزَالِ والدِين ، وفى السياسة ، والاقتصادِ ، وفى التاريخ والجغرافيةِ ، والطبيعياتِ

(٤٨) يخففون المرض عليه .



والرياضياتِ ، وفى العصَبيَّةِ وتأثيرِ البيئة ، وفى الاجتماع والأخْلاق ، وعلى رأسِها كانَتْ كتُبه الموسوعيَّةُ الكبْرى : البيانُ والتَّبْيين ، والبُخَلاء ، والحَيَوان .

وجاءَ موْتُ الجاحِظِ مفاجأةً لسائرِ الناس . فلقَدْ زحَفَ فى يومٍ منْ أيامِ شهْرِ المحرم ، سنَة مائتين وخمسٍ وخمْسين للهجرة ، إلى غرفَةِ كتبه ، وكانَ وحيدًا ، وتحامَلَ على نفسِه

جالسًا، وحولَه رُفوفٌ مليئةٌ بالكُتُبِ والدفاتِر . فانهالتِ الكتُبُ والرفُوفُ فوقَهُ وحَوْلَه ، فماتَ بيْنها .

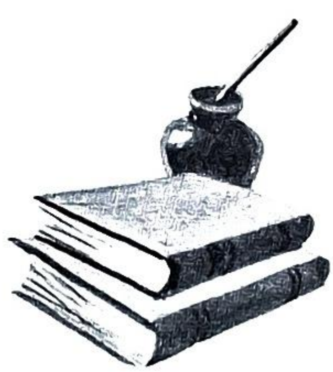
وصرَخَ الخَليفَةُ المعتَزُّ فى جزَعٍ ، حين بلَغَهُ خبَرُ موْته . وبكاهُ الكاتِبُ أبُو العَيْناءِ بين يَدىِ الخليفة ، فقيل لَهْ من أحَدِ الجاهِلِين :

– ليتَ شعرِى . أىُّ شىءٍ كان هَذَا الجاحِظ يُحْسِنِ ؟

فقالَ لُه أبُو العيْناءِ ناهِرًا :

– ليْتَ شِعْرِى . وأىُّ شَىْءٍ كانَ الجاحِظُ لا يُحْسِنُه ! !

وشيَّعَت البصْرةُ الجاحِظَ إلى مَرْقدِه فى ثَراها . وظلَّ اسْمُ الجاحظ حيًّا . تُطْبَعُ مؤَلَّفَاتُه البَاقِيةُ إلى يومنا ، وتُكْتَبُ عنْهُ الكتُب ، ويقلِّدُه أُدَباءُ العَرَبِيّة فى كلِّ زمانٍ ومكانٍ .



رقم الإيداع : ٨٢/٥٧٤٦

مطبعة نهضة مصر

طبعة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ الرياض

دار المريخ للنشر

عباقرة العرب

للآباء والأبناء

هذه السلسلة أول سلسلة قصصية من نوعها تصدر باللغة العربية ، وتستعرض قصة حياة عبقرى من « عباقرة العرب » وإبداعاته المبتكرة ، التى أضاءت للبشرية كلها ظلمات العصور الوسطى. واستنقذت حضارات العالم القديم من الضياع وقدمت للعالم حضارة جديدة قامت على أكتافها الحضارة الغربية الحديثة . وتهدف هذه السلسلة إلى وصل الحاضر بالماضى ، كى تكون جسرًا بين الأجيال ، وقدوة لأبنائنا وبناتنا . . تمنحهم ثقة بأنفسهم وبأملهم ، وتحدوهم إلى مستقبل مضئ وحياة أفضل .

صدر من هذه السلسلة

- الخليل بن أحمد
- أبو العلاء المعرى
- أبو عثمان الجاحظ
- أبو حنيفة النعمان

يصدر قريبًا

أئمة الدين :

- مالك بن أنس • الشافعى • أحمد بن حنبل

العلماء :

- جابر بن حيان • الحسن بن الهيثم • أبو الريحان البيرونى

المؤرخون والجغرافيون والرحالة :

- الطبرى • ابن خلدون • ابن بطوطة
- الشريف الإدريسى

الكتاب :

- بديع الزمان الهمذانى • أبو الفرج الأصفهانى
- ابن المقفع

الشعراء :

- أبو تمام • ابن الرومى • المتنبى

الفلاسفة :

- ابن رشد • الفارابى • ابن سينا • ابن طفيل